شروط إنتاج وبناء المدونة في الميدان البحثي
الملاحظة المقنعة (بالمشاركة) وإشكالية التدوين

الباحث فاطمة الزهراء بوزلو
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل
المغرب

مقدمة

يعتبر البحث العلمي عملية فكرية منظمة ودقيقة، يقوم به الباحث من أجل انتاج معرفة جديدة حول مشكلة معينة تسمى ب "موضوع البحث". ولكي يتحقق الفهم والتفسير للظاهرة المدروسة، ينبغي على الباحث اتباع قواعد منهجية صارمة، تسمى ب ‘‘قواعد منهج البحث العلمي" هذا الأخير يعد ركنا أساسيا في عملية انتاج المعرفة الحديثة. ويشمل عدة مستويات، نذكر منها، المقدمة النظرية، المنهج، جمع البيانات ثم التحليل والنقاش1. وتعتبر مدونة الباحث عنصرا هاما في أي مشروع بحثي، لأنها تخترق كل هذه المستويات السابقة الذكر، وترافق الباحث في كل مراحل البحث منذ التفكير في الإشكالية وصولا إلى مرحلة الكتابة النهائية.

يسعى هذا المقال، إذن، إلى تسليط الضوء على كيفية بناء الباحث للمدونة وجمع المعلومات الأمبريقية من خلال الملاحظة المقنعة، كأسلوب لجمع البيات. بمعنى تبيان كيف أن فعل التدوين ليس بالسهولة التي يظهر عليها. إذ أن البحث حول موضوع يفترض النزول للميدان، مما يجعل من تدوين المعلومات صعبا، خاصة في الحالات التي لا يُقدم فيها الباحث هويته الحقيقية للمجتمع المدروس، وإنما يتقمص دورا معينا، تجنبا لأي تصنع أو تكلف. وبالتالي فالتساؤل هنا هو تساؤل في مدى مرونة وصمود مدونة الباحث في هذه المواقف. بمعنى آخر حينما تقتضي الضرورة نزول الباحث للميدان وممارسة فعل الملاحظة المقنعة بهوية مزيفة، كيف يمكن في هذه الحالة ممارسة فعل التدوين والتسجيل؟ وإذا ما حصل وتمكن من ذلك، ما مدى عمق واحاطة المحتوى المدون للوقائع والأحداث؟

قبل الإجابة على هذه التساؤلات سأقوم مبدئيا بتعريف مدونة الباحث، من خلال الوقوف على كيفية كتابتها، ومكوناتها، ثم وظيفتها البحثية. وبعد ذلك سأتطرق إلى الملاحظة المقنعة كتقنية من تقنيات جمع البيانات في البحث النوعي، وأهم مميزاتها. وفي الأخير تبيان كيفية استعمال المدونة أثناء الملاحظة المقنعة، وكيف يواجه الباحث عدم إمكانية التدوين أو التسجيل، من خلال التطرق إلى ما الذي يدون؟ وكيف يدون؟

المدونة كخزان للمادة العلمية الأولية

من خلال القراءات المتعددة نلمس أن هناك تعدد واختلاف في تسمية المدونة. بحيث تسمى "التعليقة" و"الكراس" أو "مذكرة التدوين"...لكن بالرغم من تعدد التسميات فإن وظيفتها واحدة وهي أنها حاملة وجامعة للمعلومات التي يستجمعها الباحث طيلة فترة البحث. فنجد سيرج بوغام يربطها بالميدان، ويعرفها بكونها من بين الأدوات التي ترافق الباحث في الميدان، إنه دفتر يوميات الميدان. فيقول "على هذا النحو يرافق الكراس الباحث في كل تنقلاته، إذ يعلق علماء الاجتماع عامة أهمية رئيسية على الكراس، لا لأنهم فيه يسجلون مادتهم الأولية فحسب، بل لأنه يمثل جزءا منهم في خضم ممارساتهم العسيرة لمهنتهم"2.

ليس هناك طريقة واحدة لكتابة المدونة، وإنما لكل باحث أسلوبه الخاص في ذلك. ولا ينبغي أن تتضمن المدونة كل المعلومات التي تصادف الباحث، ولكن ينبغي أن تكون ذات صلة بالسؤال البحثي وأن تصب في الاتجاه النظري العالم لموضوع البحث. وهي بذلك تضم صنفين من المعلومات، الصنف الأول عبارة عن القراءات الأولية حول المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوع البحث، وهنا تتخذ المدونة شكل بطاقات أو ما يسمى ب"التعليقة"، يتم الإشارة فيها إلى اسم المرجع، والصفحة، أو عنوان المحاضرة وتاريخها3. في حين أن الصنف الثاني يتمثل في المعطيات الأمبريقية، أي كل ما دونه الباحث خلال الزيارات الميدانية التي قام بها، وتشمل زمان ومكان المقابلات أو الملاحظات، التعابير الكلامية، المواقف والانطباعات...4

تحتوي المدونة، إذًا، على وقائع ومعطيات يقينية، وفي نفس الوقت شكوك وتساؤلات، بحيث لا تحوي فقط النقاط الهامة بل القضايا والنقاط التي لم يفهمها الباحث وتتطلب توضيحًا وشرحًا مفصلين. وبالتالي فإن أي بحث لا يستقيم من دون المدونة. بل يمكن لفقدانها أن يؤدي إلى فشل البحث. وقد ينقل بعض الباحثين مقاطع ومقتطفات خام منها في منشوراتهم، في حين يعتبر باحثون آخرون أن المدونة شخصية، وأن المقتطفات المدونة فيها لا شأن لها إلا مساعدة الباحث، والباحث وحده.5

الملاحظة المقنعة (الغير المكشوفة) كتقنية لجمع المعلومات

تعد الملاحظة بشكل عام من أقدم طرائق البحث الاجتماعي، بحيث استخدمها في الأول علماء الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا في إطار دراسة ثقافة المجتمعات "البدائية". وبمرور الزمن أصبحت هذه الوسيلة من أهم تقنيات البحث الاجتماعي.6 تتيح الملاحظة للباحث مشاهدة السلوك والوقائع في وضعها الطبيعي أي لحظة وقوعها مباشرة. وبالتالي فالملاحظة هي المشاهدة والمراقبة الدقيقة لسلوك أو ظاهرة معينة، وتسجيل الملاحظات عنها بالاستعانة إلى أساليب الدراسة المناسبة لطبيعة ذلك السلوك أو تلك الظاهرة، بغية تحقيق أفضل النتائج والحصول على أدق المعلومات7.

أما بالنسبة لأصناف الملاحظة، فيمكن أن تتخذ أشكالاً عدة يختلف بعضها عن بعض في جوانب عدة على الرغم من تشابهها بشكل عام. فهي تختلف في مدى مشاركة الملاحظ في ميدان الملاحظة، ومدى كون الملاحظة منظمة أو مقننة. وهذا التمييز يؤدي إلى وجود أنواع أساسية منها. فنجد الملاحظة بالمشاركة والملاحظة من دون المشاركة، الملاحظة المبنية (المقنعة) وغير المبنية (غير المقنعة)، الملاحظة المخبرية، الملاحظة المفتوحة والملاحظة الخفية...8

بالنسبة للملاحظة المقنعة يكون المبحوثين غير مدركين بكونهم خاضعين للملاحظة، فهوية الباحث هنا غير معروفة. ويحرص الباحثين على اعتماد هذا النوع من الملاحظة تفاديًا لتغيير أفراد الدراسة سلوكهم حينما يدركون أنهم قيد الدراسة والملاحظة. على سبيل المثال يتظاهر الباحث الذي يود دراسة سلوك المثليين بأنه شاذ جنسيا مثلهم، حتى يستطيع دراسة الظاهرة من الداخل. نفس الشيء بالنسبة للباحث الذي يريد دراسة أوضاع العمال في مصنع معين، بحيث يشارك معهم العمل ويظهر بصورة عامل ليتمكن من كشف البنية الداخلية للموضوع. وأشهر نموذج للملاحظة المقنعة هي تجربة عالم الاجتماع **9Damien Carton** الذي عمل كمستخدم في محل للوجبات السريعة.

تكمن أهمية هذه التقنية مقارنة بالملاحظة المكشوفة، في كونها تتيح للباحث ملاحظة السلوك بصورة أكثر عفوية بعيدا عن التكلف والتصنع، ومعرفة خبايا الجماعة وأسرارهم، والمعاني التي يضفونها على أفعالهم. غير أن ما يؤخذ على هذا النوع من الملاحظة هو أن الباحث يكون فيها عرضة للخطر إذا اكتشفت الجماعة التي يدرسها هويته10. ويبقى سؤال الأخلاق حاضرًا في هذا النوع من الملاحظة، بحيث يتوجب على الباحث أن يبرر اختياره لهذا الأسلوب، والدوافع التي جعلته يعتمدها.

الملاحظة المقنعة وشروط كتابة المدونة

إن أهم ما يميز البحوث الاجتماعية والإنسانية كونها تتطلب قدرًا كبيرًا من الاهتمام بالسياق العام للظاهرة الاجتماعية موضوع الدراسة، والإلمام بالجوانب المتعددة لها، وتجنب الأحكام المسبقة قدر المستطاع. لذلك ينبغي للأبحاث أن تكون مباشرة، نوعية وشاملة. ما يفرض على الباحث أن يتخذ موقفا واعياً وفعالًا من مجريات البحث، وأن يستخلص نتائجه من عمق الظاهرة المعاشة أو الملاحظة، من خلال اجراء "إقامة أنثروبولوجية" كما يسميها الأستاذ أكثوف11. أي الإحاطة بالمعاني السياقية للظاهرة. وهذا يفرض على الباحث أن يمتنع عن الكلام في الميدان، وأن يستمع قدر المستطاع. فضلا على تدوين ملاحظات بأعلى درجة ممكنة من الدقة.

يحوِّلُ الباحث التفاعلات والسياقات والإيحاءات والسلوكات ولغة الجسد والتعابير الانفعالية والمواقف، بشكل عام، إلى ملاحظات مكتوبة منظمة، بحيث تعكس هذه الأخيرة، بالضرورة، جميع خبراته اليومية، وعمليات الرصد

والملاحظة التي قام بها12. بيد أن في بعض الحالات يكون الباحث مضطرا إلى عدم إظهار هويته، وعدم اعتماد الملاحظة بالمشاركة المكشوفة، مخافة إثارة نوع من الاضطراب في الواقع الملحوظ، وكثم المبحوثين نزعاتهم اليومية، والاقتصار على عرض ما لا يعكس حياتهم الاجتماعية إلا بقدر سطحي. وبالتالي، ما السبيل إلى حفظ وتدوين الباحث ما يراه من دون اثارة انتباه المبحوثين؟ ومن دون الكشف عن هويته كباحث؟

إن بناء المدونة يختلف حسب اختلاف مستويات البحث، فمثلا أن يدون الباحث الأفكار والنقاط الرئيسية حول المصادر والمراجع المتعددة ذات الصلة بالموضوع المدروس، يختلف تماما عن جمع المعطيات الأمبريقية، وهنا تكمن صعوبة الميدان. فمثلا "الإيحاءات" من حيث هي مصدر مهم للمعلومات، تتطلب وصفًا مكثفًا وعميقاً من أجل فهم معناها 13. وتفاديا لأي تغيير يمكن أن يساهم فيه تواجد الباحث "كباحث"، ودرئًا لأي شك في عفوية وتلقائية المحتوى الملاحظ، يقوم الباحث بممارسة الملاحظة الغير المكشوفة أو المقنعة.

تجعل الملاحظة المقنعة كتابة المعطيات مستحيلاً، عملياً، إلا إذا كان الدور الذي تقمصه الباحث له علاقة بالكتابة (كسكرتير أو محاسب...)، كما أنه ليس بمقدوره طلب معلومات دقيقة، أو الاستفسار عن شيء محدد14. على خلاف الملاحظة المكشوفة، فهي تُتيح للباحث إمكانية التدوين والتسجيل، وأيضا حرية الانسحاب من أجل كتابة ملاحظاته على دفتره، بالرغم من أن وضعيته الخاصة والمتمثلة في "باحث ملاحظ" تضعه، سواء أقبل بذلك أم لم يقبل، في نوع من الخارجية بالنسبة إلى الأدوار الاجتماعية المختلفة والتفاعلات الإنسانية للمجموعة15. وبما أن الملاحظة، بشكل عام، تهدف إلى وصف شامل ما أمكن لحقيقة الوقائع الاجتماعية. فإن ذلك يطرح التساؤل حول ما الشيء الذي يتمكن الباحث الخفي (الذي استعمل الملاحظة المقنعة) من ملاحظته وتدوينه؟

بما أن الباحث لا ينبغي عليه أن يقتصر على العرض السطحي للوقائع، وبما أن إمكانية تسجيل الملاحظات بشكل مباشر غير متاحة. فإنه لا يستطيع الاستناد إلى ذاكرته، ويظل عرضة للنسيان، مادام منقادًا لسيل من الأحداث التي تقع أثناء حضوره. فنجد **Olivier Schwartz** يؤكد على انعدام اليقين في الاستذكار(التذكر) في مجال لا يسمح بتسجيل الملاحظات16. وتزداد الصعوبة حينما يتعلق الأمر بمحادثات آنية متلاحقة بين مجموعة من المتدخلين يقاطعون بعضهم البعض، ويمكن أن تستغرق مساءً بأكمله، كما أنها جرت في ظروف تجعل من تخزينها في الذاكرة صعبةً جدًا. هنا لا مجال للتدوين ولا للاستفسار، وإنما إعادة تركيب الذكريات والقبول بأن تكون بعض مقاطعها قد فُقد، والاعتراف بالطبيعة التقريبية لما تم الاحتفاظ به وتذكره.

وبالتالي، فالباحث الخفي ينبغي أن يتجنب "وهم" الإحاطة بكل شيء نظراً وتسجيلًا. لقد كان ماكس فيبر يحرص على التذكير "بتنوع الواقع اللانهائي" 17وباستحالة اجراء وصف كامل، بالشكل المحسوس الذي يبدو لنا عليه. بمعنى أن هناك نوع من النزوع الوضعي والتجزيئي للاقتراب من الكمال الوصفي. غير أن تمرس الباحث

ومرونته، من خلال تجاربه البحثية الميدانية، تمكنه من تطوير حيَل خاصة في التسجيل، وتفادي فقدان ما رآه وما سمعه. فيستخدم بعض الباحثين، على غرار وليام فوت وايت، المراحيض للتدوين على كراساتهم، بشكل فوري، الوقائع التي تبدو لهم حاسمة، والألفاظ المستعملة. في حين يختلق آخرون أعذارا للانفراد في غرفهم أو مكاتبهم18.

حاصل القول اذن وقبل أن يقوم الباحث بكتابة بحثه بشكل نهائي، يجب عليه أولا مساءلة مدونته، بالكثير من النقد، واستحضار شروط بنائها، فهي ليست فقط رفيقة الباحث طيلة مراحل البحث، ولا مجرد وسيط يجمع بين الشق النظري والميداني للبحث. ولكن هي اللبنة الأولى والأرضية التي يقوم عليها البحث، فمنها المعلومات والمصادر والمادة الخام للبحث، إذ تُبنى بشكل تراكمي، يجعل منها مرآة تعكس ملامح البحث وجودته. وبالتالي يجب على الباحث اعتماد الحذر من مضامين المدونة، وعدم الاعتماد على تقنية بحثية واحدة لجمع المعلومات، وإنما تعزيز معطياته بالمقابلات وأدوات التسجيل، والتقرب من الفاعلين المحلين، من خلال التعمق والانغماس في الواقع المحلي المدروس، حتى يتحقق لدى الباحث فهم عميق وشامل للظاهرة المدروسة.

الهوامش:

[1] إسماعيل ناشف، "صمت الظواهر: مقاربات في سؤال المنهج"، مجلة إضافات العدد العاشر ربيع (2010): 118.

[2] سيرج بوغام، ممارسة علم الاجتماع، ترجمة منير السعيداني (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، 113.

[3] لطيفة الكندري،" التعليقة من ضوابط القراءة المنهجية"، مجلة ملتقى أهل الحديث، العدد (68\417)، بدون سنة النشر، بواسطة المكتبة الشاملة.

[4] سيرج بوغام، ممارسة علم الاجتماع، ترجمة منير السعيداني (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، 114.

[5] نفس المرجع، 115.

[6] سوتيريوس سارانتاكوس، البحث الاجتماعي، ترجمة شحدة فارع (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، 391.

[7] عامر إبراهيم قنديلجي، البحث العلمي ودليل الطالب في الكتابة والمكتبة والبحث (بغداد: الجامعة المستنصرية، 1979)، 71.

[8] سوتيريوس سارانتاكوس، البحث الاجتماعي، ترجمة شحدة فارع (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، 395.

[9] لقد اختار الباحث الملاحظة بالمشاركة المقنعة لأنه خشي أن يتم رفضه من قبل ماكدونالدز، فضلا على أنه لا يريد أن يتسبب معرفة هويته في عدم اطلاعه على أسرار العمل وطريقة تسييره. فتمكن من معرفة شروط العمل، بالرغم من كونه عانى من الضغط النفسي، والإهانات... أنظر: Damien Carton, «Le sociologue pris en sandwich. Retour sur une observation participante dans un fast-food » Travail et emploi, Avril 2003. No 94, 59-64.

[10] إبراهيم أبو الغد ولويس كامل مليكة، البحث الاجتماعي: مناهجه وأدواته (القاهرة: دار المعارف، 1959)، 84.

[11] أنظر Aktouf Q, Methodologies des Sciences sociales et approche qualitative des organisations. Une introduction a la démarche classique et une critique (Montréal : les presses de l`université du Québec, 1987).

[12] سوتيريوس سارانتاكوس، البحث الاجتماعي، ترجمة شحدة فارع (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، 367-366.

[13] شارلين هس وباتر يشيا ليفي، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ترجمة هناء الجوهري (القاهرة: المركز القومي للترجمة والنشر، 2011)، 226.

[14] سيرج بوغام، ممارسة علم الاجتماع، ترجمة منير السعيداني (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، 106.

[15] المرجع نفسه، 107.

[16] Olivier Schwartz, L`empirisme irréductible, Postface à Nels Anderson, le Hobo. Sociologie du sans-abri (Paris : Nathan, 1993), 282.

[17] أنظر: Max weber, Essais sur la théorie de la science (Paris: Pocket, 1992)

[18] سيرج بوغام، ممارسة علم الاجتماع، ترجمة منير السعيداني (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، 111.